قاعـدة الانطلاق
وقارب النجـاة

تأليف

فيصل بن علي البعداني

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ⓗ مجلة البيان ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البعداني، فيصل بن علي

قاعدة الانطلاق وقارب النجاة/ فيصل بن علي البعداني، الرياض، ١٤٢٤هـ

٦١ ص؛ ١٧× ٢٤

ردمك: ٣ - ١ - ٩٤٤٩ - ٩٩٦٠

١ - التوحيد. ٢ - الأخلاق الإسلامية.

أ - العنوان

ديوي ٢٤٠ ٤٤١٢/١٤٢٤

رقم الإيداع: ٤٤١٢ / ١٤٢٤

ردمك: ٣ - ١ - ٩٤٤٩ - ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيد المخلصين وإمام المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلما كان الإخلاص أساس الدين، وعموده العظيم، الذي لا يتم للعبد بسواه إسلامه، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً بدونه، وكنا في زمن قلَّ فيه المخلصون، وكثر الأدعياء والمتشدقون، الذين يظهرون ما لا يبطنون؛ أحببت كتابة نبذة مختصرة عنه رجاء أن يكون فيها عون للسالكين، الراغبين في النجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، سائلاً من ربي قبولها، والنفع بها؛ إنه قريب مجيب.

حقيقة الإخلاص

الإخلاص لغة: تصفية الشيء وتنقيته، يقال: خَلُص الشيء من الشوائب إذا صفا، وأخلص الشيء: نقّاه، وخلَّصه: أزال عنه ما يكدره[(١)].

وقد اختلفت عبارات العلماء في المراد به شرعاً، فقيل: هو «قصد المعبود وحده بالعبادة، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [**الكهف**: ١١٠]»[(٢)]، وقيل: «تخليص القلب من كل شوب يكدر صفاءه»[(٣)]، وقيل: «التوقي من ملاحظة الخلق»[(٤)]، وقيل: «إفراد الحق ـ سبحانه ـ في الطاعة بالقصد»[(٥)]، وقيل: «ما لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا يُعْجَب به صاحبه فيبطله»[(٦)]، وقيل: «أن يكون الداعي إلىٰ الإتيان بالمأمور وإلىٰ ترك المنهي إرضاء الله تعالىٰ»[(٧)]، والتعريفات متقاربة، ومدارها علىٰ أن يريد العبد «بطاعته التقرب إلىٰ الله ـ سبحانه ـ دون أي شيء آخر؛ من تصنُّع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنىٰ من المعاني سوىٰ التقرب به إلىٰ الله تعالىٰ»[(٨)].

ولقصد الرب بالعمل وإخلاصه له صور عدة؛ إذ من العباد من يعبد الله ـ تعالىٰ ـ (تعظيماً له وتوقيراً، ومنهم الذي يقصد الدخول في طاعته وعبادته،

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ٢ / ٢٠٨، المصباح المنير، للفيومي: ٩٤.

(٢) عمدة الحفاظ، للسمين الحلفي: ١ / ٦٠٠.

(٣) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، للمناوي: ٤٣.

(٤) الرسالة القشيرية: ٢ / ٤٤٤.

(٥) الرسالة القشيرية: ٢ / ٤٤٣.

(٦) الفوائد، لابن القيم: ١٤٨.

(٧) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٣ / ٣١٨.

(٨) الرسالة القشيرية: ٢ / ٤٤٣.

ومنهم الذي يطلب رضوانه ورضاه، ومنهم الذي يقصد الأنس به والتلذذ بطاعته وعبادته، ومنهم من يرجو التنعم برؤيته في يوم لقياه، ومنهم من يطلب ثوابه من غير أن يستشعر ثواباً معيناً، ومنهم من يطلب ثواباً معيناً، ومنهم من يخاف عقابه من حيث الجملة غير ناظر إلىٰ عقاب معين، ومنهم من يخشىٰ عقاباً معيناً.

وتنوع المقاصد باب واسع، والعبد قد يقصد هذا مرة، وهذا مرة، وقد يقصد أكثر من واحد من هذه المقاصد، وكلها تنتهي إلىٰ غاية واحدة، وتعني في النهاية شيئاً واحداً: أن العبد يريد الله سبحانه، ولا يريد سواه، وكل ذلك محقق للإخلاص، وأصحاب هذه المقاصد علىٰ الصراط المستقيم، وعلىٰ الهدىٰ والصواب)[1]، وإن كان لا ينبغي للعبد أن يخلي عبادته من قصد الحب لله المشوب بتعظيم، ومن الخوف والرجاء؛ إذ قوام العبادة ومدارها علىٰ ذلك، والله أعلم.

(١) مقاصد المكلفين، للأشقر: ٤٠٩.

منزلة الإخلاص

الإخلاص هو حقيقة الدين، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ـ٣]، فقصر ـ سبحانه ـ (ما يصح أن يدان به على الخالص منه، وهو المنزه عن شوائب الشرك قليله وكثيره، جليله وحقيره، فأفادت الآية أن الإخلاص شرط في دين الإسلام، وهو دين الأنبياء أجمعين، وطلب الإخلاص في جميع الشرائع دليل على عظم منزلة هذا الخلق العظيم)[1].

وهو مفتاح دعوة المرسلين عليهم السلام، وأعظم الأصول التي جاؤوا بها، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، يقول ابن كثير: (فلم يزل ـ تعالى ـ يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥])[2].

وهو رأس أعمال القلوب التي هي أجل أعمال العبد وأعظمها قدراً[3]، يقول ابن القيم موضحاً ذلك: (فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح، والنية هي عمل القلب)[4].

---

(١) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، للحداد: ١ / ١٦٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤ / ٧٥٠.
(٣) انظر: الإخلاص والشرك الأصغر، د. العبد اللطيف: ٤.
(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٣ / ١٩٢، ومما قال أيضاً: (الكلام في مسألة النية شديد الارتباط=

وهو أحد شرَطْي قبول العمل؛ إذ لا يقبل من أحد قربة بدونه، يقول النبي ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»(١).

ولجلالته وعظم منزلته أثنى الله على المتصفين به ونوَّه بذكرهم، فقال ـ سبحانه ـ عن كليمه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا(٢) وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، وقال ـ عز وجل ـ عن يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٣)﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال ـ تعالى ـ عن محمد ﷺ: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا

= بأعمال القلوب، ومعرفة مراتبها وارتباطها بأعمال الجوارح، وبنائها عليها وتأثيرها فيها صحة وفساداً، وإنما هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها)، إلى أن قال: (. . . والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعاً لها. . . وهذه حقيقة العبودية، ومن المعلوم أن هذا هو مقصود الرب ـ تعالى ـ بإرساله رسله وإنزاله كتبه، وشرعه شرائعه. . . ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟! وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟! وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمَرْكَب الإيمان القلب، ومَرْكَب الإسلام الجوارح) اهـ. من بدائع الفوائد: ٣/ ١٨٧ ـ ١٩٣.

(١) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٦٥٩).

(٢) قرئ في السبعة بكسر لام (مخلصاً) وفتحها، والمعنى على قراءة الكسر: أن موسى ـ عليه السلام ـ أخلص العبادة لله ـ تعالى ـ من غير مراءاة للعباد، والمعنى على قراءة الفتح: أنه ـ تعالى ـ اصطفاه وجعله مختاراً، انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣٧، فتح البيان، لصديق خان: ٨/ ١٦٨.

(٣) قرئ في السبعة بفتح لام﴿الْمُخْلَصِينَ﴾، وتأويلها: (إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا واخترناهم لنبوتنا)، وقرئ بكسر اللام، وتأويلها: (إن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا فلم يشركوا بنا شيئاً، ولم يعبدوا شيئاً غيرنا)، انظر: جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٤٩ ـ ٥٠، المحرر الوجيز، لابن عطية: ٨/ ٢٨١.

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]؛ مما يوضح أن الإخلاص كان أبرز سماتهم وأخص خصائصهم(١).

وفي المقابل جاء الوعيد الشديد لمن تخلى عنه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال ـ سبحانه ـ عن المشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، يقول ابن القيم عقب إيراده للآية: (وهي الأعمال التي كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله)(٢)، ويقول ابن كثير: (لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي؛ إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية؛ فهو باطل)(٣)، وقال ﷺ: «قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(٤)، وقال ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضَاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة [يعني: ريحها] يوم القيامة»(٥)، وقال ﷺ: «مَنْ طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه؛ أدخله الله النار»(٦).

ولذا فالإخلاص مطلوب في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، فلا يكفي أن يتوجه العبد إلى الله في عمل دون عمل، أو في قربة دون معاملة، قال ابن القيم موضحاً أهمية الإخلاص ومكانته: (العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه)(٧).

---

(١) انظر: أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة: ١ / ١٦٠ ـ ١٦١.
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢ / ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦ / ١٠٣.
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).
(٥) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وصححه الألباني.
(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني.
(٧) الفوائد، لابن القيم: ٦٧.

صعوبة الإخلاص

مع وضوح الإخلاص وجلائه إلا إنه من أشق الأمور على النفس؛ لأنه يحول بينها وبين تطلعاتها وشهواتها، فتحقيقه والاستمرار فيه يتطلب مجاهدة كبيرة، وهذه المجاهدة لا تقتصر الحاجة فيها على عوام الناس فقط؛ بل الكل محتاج إليها حتى العلماء والأشداء من الصالحين والعباد، يقول الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي، إنها تنقلب عليّ»(١)، ويقول يوسف بن الحسين الرازي: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر»(٢)، ويقول يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»(٣)، ويقول عبد الله بن مطرف: «تخليص العمل حتى يخلص أشد من العمل»(٤)، وقيل لسهل بن عبد الله: «أي شي أشد على النفس؟ قال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب»(٥)، فالنفس الأمارة بالسوء تشين الإخلاص للعبد، وتريه إياه (في صورة ينفر منها، وهي الخروج عن حكم العقل المعيشي، والمداراة والمداهنة التي بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس، فمتى أخلص أعماله ولم يعمل لأحد شيئاً تجنبهم وتجنبوه، وأبغضهم وأبغضوه)(٦)، ولذا فقد كان ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك»(٧)، وكثيراً ما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكثر في حلفه من قول: «لا ومقلب القلوب»(٨)، وذلك لكثرة تقلب القلوب وتحولها في قصودها ونياتها.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي: ١ / ٣١٧.
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١ / ٨٤.
(٣)جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١ / ٧٠.
(٤) حلية الأولياء: ١٠/ ١٢١.
(٥) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٤ / ٦٥.
(٦) الروح، لابن القيم: ٣٩٢.
(٧) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه.
(٨) أخرجه البخاري (٦٦١٧).

ثمرات الإخلاص

للإخلاص ثمار عديدة، أبرزها:

١ ـ دخول جنات النعيم:

يدل لذلك قول المولىٰ ـ جل جلاله ـ: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[1] ﴿٤٠﴾ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [**الصافات**: ٤٠ – ٤٣]، أي: فعباد الله المخلصين غير ذائقي العذاب الأليم بل هم في الجنة منعمين؛ لأنهم أخلصوا أعمالهم لله ـ تعالىٰ ـ فاجتباهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، وعليه (فالناس كلهم هلكىٰ إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكىٰ إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكىٰ إلا المخلصون)[2].

٢ ـ قبول العمل:

الإخلاص شرط لقبول العمل، قال ابن كثير: (فإنه ـ تعالىٰ ـ لا يتقبل العمل حتىٰ يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك)[3]، وقال الساجي: (خمس خصال بها تمام العلم، وهي: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل علىٰ السنة، وأكل الحلال، فإذا فقدت واحدة لم يرفع العمل)[4]، وقال صديق خان: (ولا خلاف في أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله)[5]، ودليل ذلك قوله ﷺ: «إن الله

---

(١) قرئ في السبعة بكسر لام (المخلصين) وفتحها، فالمعنىٰ علىٰ القراءة الأولىٰ: إلا الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد، وعلىٰ الثانية: إلا الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده، ومن كان مخلَصاً فهو مخلِص ولا بد.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٣٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢/ ٢٠٨.

(٥) الدين الخالص، لصديق خان: ٢/ ٣٨٥.

ـ عز وجل ـ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»(١)، وقوله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه؛ نادىٰ منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله؛ فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك»(٢).

٣ ـ الفوز بشفاعة النبي ﷺ في الآخرة:

كلما كان العبد أكثر إخلاصاً كان أكثر تأهلاً للظفر بشفاعته ﷺ يوم القيامة، يدل لذلك قوله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»(٣)، قال ابن القيم: (وفي قوله في حديث أبي هريرة: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله» سر من أسرار التوحيد، وهو أن الشفاعة إنما تنال بتجريد التوحيد، فمن كان أكمل توحيداً كان أحرىٰ بالشفاعة)(٤)، ويؤكد ذلك المعنىٰ صديق خان فيقول: فـ(الشفاعة لأهل الإخلاص، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقتها أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود. . . وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص)(٥).

٤ ـ تنقية القلب من الحقد:

إذا حل الإخلاص في قلب أحياه، وهذّبه من الآفات، وحصّنه من السوء والفحشاء وسيئ الصفات، يدل لذلك قوله ﷺ في حجة الوداع: «ثلاث لا يغل

(١) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٥٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٣)، وحسنه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٩٩).
(٤) تعليقات ابن القيم علىٰ سنن أبي داود ـ مطبوع مع مختصر المنذري ومعالم الخطابي ـ: ٧/ ١٣٤.
(٥) الدين الخالص، لصديق خان: ٢/ ٣٠٧ـ٣٠٨.

عليهن قلب امرئ مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم»[١]، قال ابن عبد البر: (فمعناه لا يكون القلب عليهن ومعهن غليلاً أبداً، يعني: لا يقوىٰ فيه مرض ولا نفاق إذا أخلص العمل لله، ولزم الجماعة، وناصح أولي الأمر)[٢]، وقال ابن القيم: (أي: لا يبقىٰ فيه غل، ولا يُحمل الغل مع هذه الثلاثة بل تنفي عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه، فإن القلب يغل علىٰ الشرك أعظم غل، وكذلك يغل علىٰ الغش وعلىٰ خروجه علىٰ جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة)[٣].

٥ ـ مغفرة الذنوب ومضاعفة الأجر:

إذا تمكن الإخلاص من عمل كان سبباً لمغفرة ذنب صاحبه ومضاعفة أجره؛ حتىٰ لو كانت الطاعة في ظاهرها يسيرة أو قليلة، يقول ابن المبارك ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن: «رُبَّ عمل صغير تُكَثِّره النية، ورُبَّ عمل كثير تُصَغِّره النية»[٤]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان علىٰ وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به الكبائر، كما في حديث الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟! فيقول: لا يا ربّ. فيقول: لا ظلم عليك. فتخرج له بطاقة قَدْر الكفّ فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٩٦)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ١٨٢).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر: ٢١/ ٢٧٧.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٩٠).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٨/ ٤٠٠.

السجلات! فتوضع هذه البطاقة في كفة والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات»، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة)، ثم ذكر حديث البَغِيِّ التي سقت كلباً فغفر الله لها، وقصة الرجل الذي أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له، إلى أن قال: (فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك من الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك، فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له)(١).

وهذا يبين سر تفاوت منزلة الناس في المنازل، قال ابن القيم: (واعتبر هذا بحال الصدِّيق؛ فإنه أفضل الأمة، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحجاً وصوماً وصلاة وقراءة منه، قال أبو بكر ابن عياش: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه»)(٢).

وفي المقابل متى كان أداء العبد للطاعة بدون إخلاص لله وصدق معه كان معرَّضاً للوعيد الشديد، لحديث: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتِي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم

(١) منهاج السنة، لابن تيمية: ٦/ ٢١٨-٢٢٢.
(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم: ١/ ٨٢.

وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم ألقي في النار»(١)، وحديث: «لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار!»(٢)، وحديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله! وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»(٣)، وحديث: «إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: إني أغنى الشركاء عن الشريك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، هو للذي عمله»(٤).

٦ ـ الظفر بالنصر والتمكين:

من أعظم أسباب نصر الله ـ تعالى ـ لأهل الإيمان، وتمكينه إياهم؛ قيامهم بإخلاص أعمالهم له سبحانه، يدل لذلك قوله ﷺ: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»(٥)، وقوله ﷺ: «بَشِّرْ هذه الأمة بالنصر والسناء والتمكين، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»(٦)، ومن تأمل في حياة سلفنا الصالح يجدهم لم ينتصروا إلا

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وهو حديث صحيح.
(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة (٤١٣٥)، وإسناده قوي.
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، والبغوي في شرح السنة (٤١٣٦)، واللفظ له.
(٥) أخرجه النسائي (٣١٧٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢ / ٦٦٩).
(٦) صحيح ابن حبان (٤٠٥)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

بقوة إيمانهم، وزكاة نفوسهم، وإخلاص قلوبهم، وعملهم بعقيدة جعلوا كل شيء وقفاً عليها[١]، يقول عمر بن الخطاب: «فمن خلصت نيته في الحق ولو علىٰ نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس»[٢]، وقد عقب ابن القيم علىٰ هذه الكلمة الجليلة فذكر أنها: (منبع الخير وأصله... فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالىٰ، وكان قصده وهمه وعلمه لوجه الله سبحانه؛ كان الله معه، فإنه ـ سبحانه ـ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوىٰ والإحسان: خلوص النية لله في إقامة الحق، والله ـ سبحانه ـ لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء، فإن كان الله مع العبد فمن يخاف، وإن لم يكن معه فمن يرجو، وبمن يثق، ومن ينصره من بعده!)[٣].

٧ ـ نيل قبول الناس ومحبتهم:

يضع الله ـ سبحانه ـ لصاحب الإخلاص القبول والمحبة في قلوب الخلق، بعكس المرائي الذي يطلب الشهرة، ويسعىٰ للحصول علىٰ المنزلة في قلوب الناس، فالله يعامله بنقيض قصده، جاءت بذلك الأحاديث، ومنها: قوله ﷺ: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[٤]، وقوله ﷺ: «من سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به سامع خلقه، وصغّره وحقّره»[٥]، وقوله ﷺ: «من كانت الدنيا همه: فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته: جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[٦].

---

(١) الرائد، للفريح: ١ / ٣٤.
(٢) السنن الكبرىٰ، للبيهقي: ١٠ / ١٥٠.
(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢ / ١٧٨.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩٩).
(٥) أخرجه أحمد (٦٨٠٠)، وصحح إسناده محققو المسند (١١/ ٥٧).
(٦) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وهو حديث صحيح.

وقد كان هذا الأمر جلياً لدىٰ السلف الصالح، فهذا مجاهد يقول: «إن العبد إذا أقبل إلىٰ الله ـ عز وجل ـ بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه»، وهذا الفضيل يقول: «مَنْ أحب أن يُذكر لم يُذكر، ومَنْ كره أن يُذكر ذُكر».

وقد علق الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ علىٰ قول الفاروق: «فمن خصلت نيته في الحق ولو علىٰ نفسه؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن بما ليس فيه شانه الله»، فقال: (لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص، فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه. . عامله الله بنقيض قصده. . . ولما كان المخلص يعجل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس. . عجّل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شانه الله بين الناس؛ لأنه شان باطنه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحسنىٰ وصفاته العليا)[١].

٨ ـ قلب المباحات إلى طاعات:

إخلاص العبد ونيته الصالحة ترتفع بعمله الدنيوي وتصيّره عبادة مُتَقبَّلة، يدل لذلك قوله ﷺ: «وفي بُضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٢]، وقوله ﷺ: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها؛ حتىٰ ما تجعل في فم امرأتك»[٣]، قال النووي: (فيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالىٰ؛ صار طاعة ويثاب عليه، وقد نبه ﷺ علىٰ ذلك بقوله ﷺ: «حتىٰ اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك»؛ لأن زوجة الإنسان هي أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها، فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦).

الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إن قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالىٰ؛ حصل له الأجر بذلك، فغير هذه الحالة أولىٰ بحصول الأجر إذا أراد وجه الله تعالىٰ، ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئاً أصله علىٰ الإباحة وقصد به وجه الله يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي علىٰ طاعة الله تعالىٰ، والنوم للاستراحة ليقوم إلىٰ العبادة نشيطاً، والاستمتاع بزوجته وجاريته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام، وليقضي حقها، وليحصل ولداً صالحاً، وهذا معنىٰ قوله ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة»، والله أعلم)[١]، وقال ابن تيمية: (إن الذي ينبغي؛ أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به علىٰ الطاعة، ويقصد الاستعانة بها علىٰ الطاعة، فهذا سبيل المقربين السابقين)[٢]، ولذا فقد كان السلف يُكثرون من استحضار النية الصالحة في المباحات، قال زبيد اليامي: «إني لأحب أن تكون لي نية في كلِّ شيء حتىٰ في الطعام والشراب»، وعنه أنه قال: «انو في كل شيء تريده الخير، حتىٰ خروجك إلىٰ الكُناسة»[٣]، وقال غيره: «مَنْ سَرَّه أن يكمل له عمله فليحسن نيته، فإن الله ـ عز وجل ـ يأجر العبد إذا حسنت نيته حتىٰ باللقمة»[٤].

وكما أن الإخلاص يرفع المباحات إلىٰ منزلة الطاعات؛ فإن الرياء يهبط بالطاعات المحضة فيقلبها معاصي شائنة، كما في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) شرح مسلم، للنووي: ١١/ ١١٢.
(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية: ١٠ / ٤٦٠.
(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١ / ٧٠.
(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١ / ٧١، وليس هذا فحسب، بل يحسن بالعبد أن يكثر من تعداد النيات في العمل الواحد، فمثلاً: إذا أراد الوضوء فلينْو في ذلك امتثال أمر الله ـ تعالىٰ ـ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، ولينْو متابعة النبي ﷺ القائل: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»، ولينْو رفع الحدث، ولينْو أن تتساقط ذنوبه مع آخر قطر الماء... ونحو ذلك من النيات الحسنة، وانظر: رسالة: تعبدي لله بهذا، للقاسم: ٤٥ ـ ٤٦.

آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال ابن كثير: (ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة؛ ليُشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم. ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية)(١)، وكما في حديث الثلاثة الذين هم أول مَنْ تسعر بهم النار(٢).

ومما روي عن السلف في ذلك أن رجلاً قال «لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله ـ تعالى ـ ومَحْمَدة الناس؟ قال: لا شيء لك. فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك. ثم قال في الثالثة: إن الله يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك... الحديث»(٣)، «وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يُحمد ويُؤجر، فقال له: أتحب أن تُمقت؟ قال: لا. قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه»(٤).

٩ ـ بلوغ النية الخالصة مبلغ العمل:

صاحب النية الصالحة قد يعجز عن عمل الخير الذي يصبو إليه لقلة ماله، أو ضعف صحته، وقد يجتهد في فعل الخير ولا يدرك موقعه، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع المخلص إلى مراتب العاملين الموفقين؛ لأن علوّ همته وصدق نيته أقوى لديه ـ عز وجل ـ من عجز وسيلة عبده وقلة حيلته، يقول النبي ﷺ: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا! حبسهم العذر»(٥)، وفي رواية مسلم: «إلا شركوكم في الأجر»(٦)، ويقول ﷺ: «من

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٦٩٤.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، وانظر: الرائد، للفريح: ١/ ٣٦-٣٧.
(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٢٩٦.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٢٩٦.
(٥) أخرجه البخاري (٢٨٣٩).
(٦) مسلم (١٩١١)، وانظر: الرائد، للفريح: ١/ ٣٨.

أتىٰ إلىٰ فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتىٰ أصبح؛ كُتب له ما نوىٰ، وكان نومه صدقة عليه من ربه عز وجل»[١]، ويقول ﷺ: «مَنْ سأل الله الشهادة بصدق؛ بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات علىٰ فراشه»[٢].

وفي الحديث الآخر: ذكر الرجل الذي رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فتمنىٰ مثل مال فلان ليعمل عمله الصالح، فقال النبي ﷺ: «فهُما في الأجر سواء»[٣]، يقول ابن تيمية: (النية المجردة من العمل يثاب عليها، والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأئمة أن من عمل الأعمال الصالحة بغير إخلاص لله لم يقبل منه ذلك، وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة»[٤].

الثاني: أن من نوىٰ الخير وعمل منه مقدوره وعجز عن إكماله كان له أجر عامل، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة! قال: وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر»[٥])[٦].

وفي جانب نيل الأجر وإن لم يوفق المخلص لوضع الأمر في موضعه؛ يقول ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق الليلة علىٰ زانية! قال: اللهم لك الحمد؛ علىٰ زانية! لأتصدقن بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق علىٰ غني! قال: اللهم لك الحمد؛ علىٰ غني! لأتصدقن بصدقة. فخرج

(١) أخرجه النسائي: ٣/ ٢٥٨، وانظر: صحيح سنن النسائي، للألباني (١٦٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٨)، وانظر: صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٠٦).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٦).
(٥) أخرجه البخاري (٤٠٧١).
(٦) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية: ٢٢/ ٢٤٣.

بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على سارق. فقال: اللهم لك الحمد؛ على زانية، وعلى غني، وعلى سارق! فأُتي، فقيل له: أما صدقتك فقد قُبلت، أما الزانية فلعلها تستعفّ بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعفّ بها عن سرقته»(١)، قال ابن حجر: (فيه أن نية المتصدق إذا كانت صالحة قُبلت صدقته ولو لم تقع الموقع)(٢).

١٠ ـ تنفيس الكرب:

إخلاص النية وصدق العبد في الالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ سبب للنجاة من عذاب الدنيا ومصائبها وتفريج كربها، وهذا بيّن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [**الصافات**: ٧١ – ٧٤]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [**يونس**: ٢٢ – ٢٣]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ [**لقمان**: ٣٢]، وحديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فكان كل واحد منهم بعد أن يذكر عملاً صالحاً قام به يقول: اللهم! إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك؛ فافرج عنا ما نحن فيه! فانفرجت الصخرة عنهم، وخرجوا يمشون»(٣)، وحديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ في فتح مكة، وفيه: «. . . وأما عكرمة فركب

(١) أخرجه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، واللفظ له.
(٢) فتح الباري، لابن حجر: ٣/ ٣٤١.
(٣) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

البحر، فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا. فقال عكرمة: والله! لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم! إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً. فجاء فأسلم»[(١)]، فالإخلاص سبيل الخلاص؛ إذ إن هؤلاء جميعاً حين أخلصوا لله سبحانه، وأفردوه بالتضرع والدعاء في تلك الحالات العصيبة؛ أنقذهم ـ تعالى ـ ونجاهم من ورطاتهم، والشدائد التي كانوا فيها[(٢)].

١١ ـ الحفظ من كيد الشيطان:

يكيد الشيطان للعبد ويزين له سوء عمله، وبإخلاصه في عمله وصدقه في نيته يحفظه الله تعالى، ويعصمه من وسوسة الشيطان ومكره، يدل لذلك قوله ـ تعالى ـ عن الشيطان: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [**الحجر**: ٣٩ – ٤٠]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [**ص**: ٨٢ – ٨٣]؛ أي: إلا الذين أخلصوا العبادة والإيمان لك؛ فإنه لا سبيل لي عليهم[(٣)]، فإخلاصهم كان سبباً في حفظهم من إضلال الشيطان وإغوائه، قال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه الوساوس والرياء»، وكان معروف يبكي ثم يقول: «يا نفس كم تبكين! أخلصي تتخلصي»[(٤)]، وقال ابن تيمية: (وإذا كان العبد مخلصاً له اجتباه ربه فيحيي قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله،

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٦٧)، وهو حديث صحيح.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤ / ٢٥٩، فتح البيان، لصديق خان: ١٠ / ٣٠١.
(٣) انظر: جامع البيان، للطبري: ١٧ / ١٠٣.
(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٩ / ٣٤١.

فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق؛ فيهوىٰ ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقىٰ أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً. وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق. وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدىٰ من الله.

ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له. . . استعبدته الكائنات، واستولت علىٰ قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب إذا لم يكن حنيفاً مقبلاً علىٰ الله، معرضاً عما سواه وإلا كان من المشركين)[(١)].

١٢ ـ نيل التوفيق والأنس والبركة:

متىٰ أخلص العبد لمولاه في عمله وُفّق للصواب، ودخله الأنس، وأعطي الذخائر، وبورك له في العمل، قال مكحول: «ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»[(٢)]، وحين قيل لحمدون القصار: «ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق»[(٣)]، وقال ابن القيم: (ترك الشهوات لله، وإن أنجىٰ من عذاب الله، وأوجب الفوز برحمته، فذخائر الله، وكنوز البر، ولذة الأنس والشوق إليه، والفرح والابتهاج به؛ لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية: ١٠ / ٢١٦ـ٢١٧.
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢ / ٩٢.
(٣) انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٤ / ١٢٢.

والزهد والعلم؛ فإن الله ـ سبحانه ـ أبىٰ أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره)[١].

ولكن لا بد لمن أراد نيل العطايا وتحصيل الهبات أن يتأكد فعلاً من تحقيقه للإخلاص، قال ابن تيمية: (يُذكر أن بعض الناس بلغه أنه من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه، فأخلص في ظنه أربعين صباحاً لينال الحكمة، فلم ينلها، فشكىٰ ذلك إلىٰ بعض حكماء الدين، فقال: إنك لم تخلص لله سبحانه، وإنما أخلصت للحكمة. يعني: أن الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إرادة وجهه، فإذا حصل ذلك حصلت الحكمة تبعاً، فإذا كانت الحكمة هي المقصود ابتداء لم يقع الإخلاص لله سبحانه، وإنما وقع ما يظن أنه إخلاص لله سبحانه)[٢].

١٣ ـ النجاة من الفتن:

يدل لذلك قوله ـ تعالىٰ ـ عن نبيه يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**[٣]﴾ [**يوسف**: ٢٤]، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، وذلك لأن القلوب إنما تبتلىٰ بذلك إذا كانت فارغة (من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره)[٤]، يقول ابن القيم عن يوسف ـ عليه السلام ـ: (فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء

(١) الفوائد، لابن القيم: ٢٧٧.
(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية: ٣/ ٣٦٢ـ٣٦٣.
(٣) قرئ في السبعة بكسر لام (المخلصين) وفتحها، والمعنىٰ علىٰ الأولىٰ أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان ممن أخلص طاعته لله، وعلىٰ الثانية: أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة، وقد بان ـ عليه السلام ـ مخلصاً مستخلصاً، انظر: فتح البيان، لصديق خان: ٦/ ٢١٥ـ٢١٦.
(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ٤٧.

فانصرف عنه السوء والفحشاء . . . فالإخلاص هو سبيل الخلاص)[١]، وقال في موضع آخر: (. . . ولهذا قال في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ. يعني: فارغاً مما سوى معشوقه)[٢]، وقال أيضاً: (أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية. وهي: الشرك، والظلم، والفواحش. . . وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا. . . فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيداً وأعظم شركاً كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقاً بالصور وعشقاً لها)[٣].

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم: ١ / ٧٢.
(٢) زاد المعاد، لابن القيم: ٤ / ٢٦٨.
(٣) الفوائد، لابن القيم: ١٢٢ ـ ١٢٣.

علامات المخلصين (١)

للمخلصين علامات عدة، من أبرزها:

١ - إرادة وجه الله:

سمة المخلصين العظمىٰ أنهم يريدون بعملهم وجه الله، فلا يريدون به مغنماً ولا جاهاً ولا ثناءً ولا عرضاً من عروض الدنيا الزائلة، والنصوص الدالة علىٰ ذلك كثيرة، منها: قوله - تعالىٰ - في صفة عباده المنيبين: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [**الكهف**: ٢٨]؛ أي يرتقبون بدعائهم رضا الله - سبحانه - لا عرض الدنيا(٢)، فلذا وصفهم في الآية بالعبادة والإخلاص فيها(٣)، ومنها: حديث أبي موسىٰ - رضي الله عنه - قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل لِيُرىٰ مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٤)، فالمخلصون أصحاب نيات صالحة، يريدون الله ورفعة دينه، والعمل إنما يكون معتبراً بالنية الصالحة، وإذا لم تصح النية فلا أثر له(٥)، وقد جاء ذلك منصوصاً عليه في قوله ﷺ: «الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله؛ فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»(٦).

---

(١) انظر: الرائد، للفريح: ١/ ٣٤.
(٢) انظر: فتح البيان، لصديق خان: ٨/ ٤٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ٤٢٥.
(٤) أخرجه البخاري (٢٨١٠).
(٥) فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٢٩، فيض القدير، للمناوي: ٤/ ١٨٣.
(٦) أخرجه البخاري (٥٤).

٢ ـ حب عمل الخلوة:

إذ المخلصون أحرص على إخفاء صالح أعمالهم من غيرهم على كتمان ذنوبهم؛ رجاء أن ينالهم الخير الوارد في حديث سعد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[(١)]، وقد كان ذلك هدياً بيناً للسلف الصالح وسمتاً ظاهراً لهم، قال المقدسي: (وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قِبَل الله ـ تعالىٰ ـ فرُّوا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعوني؟ فو الله! لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان)[(٢)].

ومن دلائل صحة ذلك عنهم: قول الخريبي: «كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها»[(٣)]، وقول أيوب السختياني: «والله! ما صدق عبد إلا سره ألا يُشعر بمكانه»، وقول سلمة بن دينار: «اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك»[(٤)]، وقول بشر الحافي: «أَخْمل ذِكْرَك، وطيِّب مطعمك، لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس»[(٥)]، وقول محمد بن العلاء: «من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس»[(٦)]، وقول الشافعي: «وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم، ولا ينسب إليّ منه شيء»[(٧)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).
(٢) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٢٠٩.
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٩ / ٣٤٩.
(٤) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣ / ٢٤٠.
(٥) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٢١٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦ / ٣٤٣.
(٧) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٩ / ١١٨.

ولم يقتصر الأمر على القول أو التوجيه أو التمني، بل تجاوز ذلك إلى الفعل، ومن شواهد ذلك: ما ورد «أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيسقي لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كيلا يُسبق إليها، فرصده عمر، فإذا هو بأبي بكر الذي يأتيها، وهو يومئذ خليفة، فقال عمر: أنت هو لعمري»(١)، وما ورد أيضاً «أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتاً، ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني، ويُخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة؛ أعثرات عمر تتبع!»(٢).

وما ورد أن منصوراً السلمي «صام أربعين سنة وقام ليلها، وكان يبكي فتقول له أمه: يا بني، قتلت قتيلاً؟! فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي. فإذا كان الصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس»(٣)، وأن داود بن أبي هند صام «أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازاً يحمل غداه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشياً فيفطر معهم»(٤)، وكان زين العابدين علي بن الحسين ينفق على أهل مئة بيت في المدينة، يأتيهم في الليل بالطعام، ولا يعرفون مَنْ الآتي به حتى مات، ففقدوا ذلك فعرفوا أن ذلك منه، ووجدوا في ظهره أثراً من نقل الطعام إلى بيوت الأرامل(٥)، وقال سفيان:

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ٧٥.
(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني: ١ / ٤٨.
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٥ / ٤٠٦.
(٤) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣ / ٩٤.
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٣ / ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

«أخبرتني سرية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه»(١)، وقال محمد بن واسع: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم»(٢)، وقال: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه»(٣)، وعن امرأة حسان بن أبي سنان قالت: «كان يجيء فيدخل معي في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها، فإذا علم أني نمت سلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي، قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله، كم تعذب نفسك، ارفق بنفسك! فقال: اسكتي ويحك! فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً»(٤)، وكان ابن المبارك يضع كمه على وجهه عند القتال لئلا يعرف(٥)؛ قال أحمد: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له»(٦).

وهذا الإخفاء إنما هو لما يشرع إخفاؤه من العمل، وذلك مخصوص بالنوافل دون الفرائض، قال القرطبي: (سائر العبادات؛ الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات، قال الحسن: إظهار الزكاة أحسن وإخفاء التطوع أفضل؛ لأنه أدل على أنه يراد الله - عز وجل - به وحده)(٧)، واستثنى أهل العلم من ذلك من يقتدي الناس به؛ إذ الإبداء في حقه أولى، (قال

(١) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٢/ ١٠٧.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٤٧.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٤٧.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ١١٧.
(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٨/ ٣٩٤.
(٦) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٤/ ١٤٦.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣/ ٣٣٣.

الطبري: كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم، ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم؛ ليقتدىٰ بهم، قال: فمن كان إماماً يُستن بعمله، عالماً بما لله عليه، قاهراً لشيطانه؛ استوىٰ ما ظهر من عمله وما خفي؛ لصحة قصده)[١]، قال سهل: «قال لقمان لابنه: الرياء أن تطلب ثواب عملك في دار الدنيا، وإنما عمل القوم للآخرة. قيل له: فكيف يكتم العمل؟ قال: ما كُلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص، وما لم تُكلف إظهاره أَحِبَّ ألا يطلع عليه إلا الله»[٢].

٣ ـ أن سرائرهم أحسن من علانياتهم:

فالمخلص ليس من يظهر التنسك أمام الناس ثم يسيء فيما بينه وبين الله، بل هو قوّام علىٰ نفسه يحاسبها كأنه أبداً يرىٰ الله، فهو مراقب له ـ سبحانه ـ في سره وعلانيته، لا روغان في استقامته، وهذا من أعظم القربات، قال ابن عطاء: «أفضل الطاعات مراقبة الحق علىٰ دوام الأوقات»[٣]، فصفته كما ذكر الله: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [**الفرقان**: ٦٤]، قال الحسن: «هذا ليلهم إذا خلوا بينهم وبين ربهم تبارك وتعالىٰ»[٤]، فهو أبعد ما يكون عن خلال أولئك الذين ضعف إخلاصهم، وقلّت مراقبتهم، ممن حكىٰ النبي ﷺ لنا حالهم، فقال: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً فيجعلها الله هباءً منثوراً. قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا جلِّهم لنا؛ أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم! قال: أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[٥].

(١) فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٣٤٥، وانظر: الإخلاص، للأشقر: ١٢٧ـ١٢٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٥ / ١٨٢.
(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٤ / ٣٩٧.
(٤) الزهد، لابن أبي عاصم: ٢٨٦.
(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٢٨).

فإتيان المعاصي وانتهاك الحرمات في السر عمل مشين، وليس من أخلاق المخلصين، ولذا قال الربيع بن خثيم: «السرائر السرائر اللاتي تخفين من الناس وهن لله ـ تعالىٰ ـ بواد، التمسوا دواءهن. ـ ثم يقول ـ: وما دواؤهن إلا أن تتوب ثم لا تعود»(١)، وقال حميد الطويل: «لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت»(٢)، وقال بلال بن سعيد: «لا يكون ولياً لله في العلانية وعدوه في السر»(٣)، وقال الحسن: «من المنافق: اختلاف القلب واللسان، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج»(٤)، وقال فرقد السنجي: «إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء»(٥)، وقال ابن الأعرابي: «أخسر الخاسرين من أبدىٰ للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد»(٦).

٤ ـ الخشية من رد أعمالهم:

مهما كثرت طاعة العبد المخلص فإنه لا يزال على خوف عظيم من رد عمله وعدم قبوله؛ وقد جاء هذا الوصف في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: يعطون العطاء وهم مضمرون خوفاً ووجلاً من ربهم أن يرجعوا إليه فلا يجدونه راضياً عنهم؛ لكونهم قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء(٧)، فهم كما قال الحسن: «يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم»(٨)، وقد روىٰ الترمذي عن عائشة أم

(١) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٢ / ١٠٨
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٤ / ٣٩٨.
(٣) صفة النفاق، للفريابي (٩٧).
(٤) المرجع السابق: (٥٣).
(٥) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٤ / ٣٩٨.
(٦) شعب الإيمان، للبيهقي (٦٩٨٧).
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥ / ٤٨٠، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٨/ ٧٧.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٢/ ١٣٢.

المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»(١)، وقد كانت هذه الصفة سمة غالبة على القرن الأول من هذه الأمة، قال الحسن: «لقد أدركنا أقواماً كانوا من حسناتهم أن تُرد عليهم؛ أشفق منكم على سيئاتكم أن تُعذَبوا عليها»(٢)، وعن محمد بن مالك بن ضيغم، قال حدثني مولانا أبو أيوب، قال: قال لي أبو مالك يوماً: يا أبا أيوب! احذر نفسك على نفسك؛ فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقص، وأيم الله! لئن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران: همّ الدنيا وشقاء الآخرة. قال: قلت: بأبي أنت! وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو ينصب لله في دار الدنيا ويدأب؟ قال: يا أبا أيوب! وكيف بالقبول؟ وكيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قربانه، همته، قد أصلح عمله، يُجمع ذلك يوم القيامة، ثم يُضرب به وجهه»(٣).

ولعل من أعظم مشاهد الخوف من رد العمل؛ أن الإمام الماوردي صاحب التصانيف الحسان في فنون عدة، كالحاوي الكبير في الفقه، والنكت والعيون في التفسير، والأحكام السلطانية، وأدب الدنيا والدين؛ (لم يُظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلما دنت وفاته، قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة، فإذا عاينت الموت، ووقعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإذا قبضت عليها وعصرتها، فاعلم أنه لم يُقبل مني شيء منها، فاعمد إلى تلك الكتب وألقها في

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٨٠).
(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٣/ ٢٢٧، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٢/ ١٣٢.
(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٣/ ٣٦٠.

دجلة، وإن بسطت يدي، فاعلم أنها قُبلت. قال الرجل: فلما احتضر، وضعت يدي في يده، فبسطها، فأظهرت كتبه)[١].

٥ ـ عدم انتظار محمدة الناس:

فهم عندما يحسنون إلى الخلق، ويسعون في تنفيس كرباتهم وتفريج همومهم؛ لا يرون لهم على أحد حقاً ولا فضلاً؛ لأنهم إنما عملوا ما عملوا طاعة لله ـ تعالى ـ وإرضاء له، فهم كما قال ـ تعالى ـ على ألسنة بعض رسله الكرام: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**الشعراء**: ١٠٩]، ولذا تراهم لا يعاتبون من أساء إليهم، ولا يحقدون على من منعهم، ولا يرجون من الخلق جزاء ولا شكوراً؛ حالهم كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾ [**الإنسان**: ٩]؛ (أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس، قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله! ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب)[٢]، وجاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل الرسول ما قالوا، فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله؛ ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله تعالى[٣]. وعن أبي عبيدة العنبري قال: «لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحُقّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقال: فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: لا والله! لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرّظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس»[٤]، ولعل من أروع ما دونه

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨ / ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٨ / ٢٨٩.
(٣) تفسير أبي السعود: ٩ / ٧٢.
(٤) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٤ / ١٩.

التاريخ في ذلك قصة صاحب النقب، قال ابن قتيبة: «حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلىٰ نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم، فنادىٰ مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادىٰ: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء. فجاء رجل، فقال: استأذن لي علىٰ الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتىٰ مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلىٰ الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب»[1].

(١) عيون الأخبار، لابن قتيبة: ١ / ٢٦٦.

تحصيل الإخلاص

لتحصيل الإخلاص طرق عدة؛ أبرزها:

١ ـ تعظيم الله وقدره حق قدره:

بمعرفة عظمته ـ سبحانه ـ وكماله وجلاله، وأنه ـ عز وجل ـ الغني الكبير المتعال، القادر على كل شيء، العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، والذي بيده النفع والضر وحده لا شريك له، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وبمشاهدة منة الله ـ تعالىٰ ـ وفضله وإحسانه، وأن العبد بالله لا بنفسه، وأن كل نعمة منه وكل خير فمن جوده وإنعامه[١]، فحقوقه ـ سبحانه ـ عظيمة، والعبد أضعف من أن يوفيه ـ تعالىٰ ـ حقه، ويشكره علىٰ نعمه، وبهذا يقوىٰ اليقين، ويعظم توجه العبد إلىٰ بارئه وإخلاصه له.

٢ ـ تعلم الإخلاص:

من أعظم سبل تحصيل الإخلاص: معرفة حقيقته، والأمور التي تنافيه أو تقدح في كماله[٢]، وقد جاء عن أهل العلم الأمر بتعلم ذلك، قال يحيىٰ بن أبي كثير: «تعلموا النية؛ فإنها أبلغ من العمل»[٣]، وقال المقدسي: (. . . وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية؛ إذ لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولىٰ علىٰ عبد أراد طاعة الله تعالىٰ؛ أن يعلم النية أولاً لتحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص

(١) انظر: الإخلاص والشرك الأصغر، الدكتور العبد اللطيف: ١٤.
(٢) انظر: الرائد، للفريح: ١/ ٣٢.
(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣/ ٧٠.

اللذين هما وسيلتان للعبد إلىٰ النجاة)[١]، ولشدة الحاجة إلىٰ ذلك قال عبد الله ابن أبي جمرة: «وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد إلىٰ التدريس في أعمال النيات ليس إلا . . . ، فإنه ما أتي علىٰ كثير من الناس إلا من تضييع النيات»[٢].

٣ ـ تذكر ثواب الإخلاص وعاقبة ضده:

ليصفو الإخلاص للعبد؛ عليه أن يتذكر ثوابه وفضائله، فهو شرط قبول العمل، والسبيل الوحيد لدخول الجنة، وبوابة السلامة من كيد الشيطان ووسوسته، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [**الحجر**: ٣٩ ـ ٤٠]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**[٣] **﴿٤٠﴾ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [**الصافات**: ٣٨ ـ ٤٤]، وقال ﷺ: «إن الله ـ عز وجل ـ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»[٤].

وفي المقابل لا بد من تذكر عاقبة فقد الإخلاص؛ إذ ذلك يحبط عمل العبد، بل قد يودي به إلىٰ النار، ويكون سبباً في فضيحته في الدنيا والآخرة، كما جاءت بذلك النصوص، ومنها: قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٣٦٠.

(٢) المدخل، لابن الحاج: ١/ ٥.

(٣) قرئ في السبعة بكسر لام (المخلِصين) وفتحها، والمعنىٰ علىٰ قراءة الكسر: إلا الذين أخلصوا لك في العمل، وعلىٰ قراءة الفتح: إلا الذين أخلصتهم وطهرتهم، وإنما استثناهم لأنه علم أن كيده ووسوسته لا تعمل فيهم لأنهم لا يقبلون منه، انظر: فتح البيان، لصديق خان: ٧/ ١٧٠، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٤/ ٥١.

(٤) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٥٦).

وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، (أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجِّل له الثواب، ولم ينقص شيئاً في الدنيا، وله في الآخرة العذاب؛ لأنه جرد قصده إلى الدنيا، وهذا كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فالعبد إنما يعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره)[١]، وقوله ﷺ: «قال الله ـ عز وجل ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك»[٢]، وحديث الثلاثة الذين هم أول من تسعَّر بهم النار[٣]، وقوله ﷺ: «مَنْ سمَّع سمَّع الله به، ومَنْ يرائي يرائي الله به»[٤]، وقوله ﷺ: «مَنْ سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به سامع خلقه، وصغّره وحقّره»[٥].

٤ ـ مراقبة النفس ومجاهدتها:

بحيث يراقب المرء نفسه قبل الإقدام على العمل؛ سائلاً إياها: ماذا أرادت به؟ فإن كانت النية سليمة أقدم، وإن كانت غير ذلك صحح قصده قبل أن يلج بوابة العمل، وقد كان ذلك هدياً ظاهراً للسلف، قال الحسن: «كان الرجل إذا هَمَّ بصدقة تَثَبَّت؛ فإن كان لله مضى، وإن خالطه شك أمسك»[٦].

ومن أقوالهم الشاهدة بذلك: قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: احذروا كل همة تكون قبل الخطيئة، فإنها بدو الخطيئة، وأن تذهلوا عن الله في سرائركم[٧]، وقول سلمان: «اذكر ربك عند همِّك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت»[٨]،

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ١٧.
(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ١٣٤، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩٩).
(٥) أخرجه أحمد (٦٨٠٠)، وصحح إسناده محققو المسند (١١/ ٥٧).
(٦) جامع البيان، للطبري: ٣/ ٧٠.
(٧) شعب الإيمان، للبيهقي: ٥/ ٤٥٨، رقم (٧٢٧٨).
(٨) المرجع السابق: ٥/ ٤٥٨، رقم (٧٢٧٦).

وقول الحسن: «رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن أحداً لا يعمل حتىٰ يهمّ، فإن كان لله ـ عز وجل ـ مضىٰ، وإن كان لغير الله أمسك»(١)؛ أي يمسك حتىٰ يصحح نيته ويراجعها، وليس المراد أن يترك العمل بالكلية خوف الرياء، بل المطلوب أن يأتي بالعمل بإخلاص، قيل لنافع بن جبير: «ألا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت حتىٰ أنوي. قال: ففكر هنية، ثم قال: امض»(٢).

٤ ـ الاستعانة بالله:

وذلك بأن يظهر العبد افتقاره إلىٰ الله عز وجل، ويكثر من الدعاء والتوسل إليه ـ تعالىٰ ـ بأن يوفقه للإخلاص؛ إذ هو ـ سبحانه ـ مقلب القلوب ومصرفها، فالاستعانة بجنابه هي الطريق القويم لتحصيل الإخلاص ودفع ضده، ولذا فرض الله علىٰ العبد أن يردد في اليوم الواحد مراراً: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [**الفاتحة**: ٥]؛ أي نعبدك وحدك، ونستعين بك علىٰ عبادتك؛ إذ لا حول لنا ولا قوة علىٰ فعل ذلك إلا بك.

ولدور الاستعانة العظيم في تحقيق الإخلاص ومفارقة الشرك؛ جاء في الكتاب العزيز من دعاء إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [**إبراهيم**: ٣٥]؛ أي: يا الله! باعدني وبنيَّ عن جانب الشرك، واجعلنا من أهل الإخلاص والتوحيد(٣). وجاء عن النبي الكريم ﷺ تعليمنا الاستعاذة بالله والاحتماء به، فعن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: «خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: أيها الناس! اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أخفىٰ من دبيب النمل. فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفىٰ من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم! إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي: ٥/ ٤٥٨، رقم (٧٢٨٠).
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١/ ٧٠.
(٣) انظر: فتح البيان، لصديق خان: ٧/ ١٢٢.

نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[١].

فأكثر من الاستعانة، وألحّ في الطلب؛ فإن من يكرر الطرق ويشتد فيه يوشك أن يلج.

٥ ـ الإكثار من الطاعات:

مراد الشيطان من العبد أن يترك الطاعة بالكلية، أو أن يأتي بها على غير وجهها (نية أو كيفية)، فإذا عرف الشيطان أن العبد يراغمه ولا يطيعه، وأنه متى أحدث له وسوسة زاد العبد من تعبده وإخلاصه ومتابعته، فإنه يكف عنه لكي لا يكون ذلك سبباً في زيادة حسناته، قال الحسن البصري: «إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً في طاعة الله؛ ملَّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا؛ طمع فيك»[٢]، وقال إبراهيم التيمي: «إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه، وليُحْدِثْ عند ذلك خيراً، فإذا رآه كذلك تركه»[٣]، «وقد حكي أنه جاء غلام لأبي ذر ـ رضي الله عنه ـ بشاة له قد كسر رجلها، فقال له أبو ذر: مَنْ كسر رجل هذه الشاة؟ قال: أنا. قال: ولم فعلت ذلك؟ قال: عمداً؛ لأغضبك فتضربني فتأثم. قال أبو ذر: لأغيظن من حضك على غيظي. فأعتقه»[٤]، و «يروىٰ عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: فلان يذكرك ـ أي بسوء ـ، فقال: والله! لأغيظن مَنْ أَمَره. قيل له: ومَنْ أَمَره؟ قال: الشيطان. اللهم اغفر له»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٦٠٦)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة أبي علي الكاهلي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣)، وصححه في صحيح الجامع (٣٧٣١).

(٢) الزهد، لابن المبارك: ٧.

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣ / ٣١٥.

(٤) فضائح الباطنية، للغزالي: ٢٢٢.

(٥) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣ / ٣١٤.

٦ ـ ترك الإعجاب بالنفس والمبالاة بالخلق:

من أعظم مداخل الشيطان على العبد دفعه له ليرى عمله ويعجب به، ويطالع المخلوقين أثناء فعله، والعجب بالعمل من باب الإشراك بالنفس(١)، وهو ناتج من استعظام العمل، ولذا فكأن المعجب بعمله مانٌّ على الله ـ تعالى ـ بفعله، وهو بذلك ينسى نعمته ـ سبحانه ـ عليه بتوفيقه له لفعل الطاعات، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وهو أمر محبط للعمل، قال النووي: (اعلم أن الإخلاص قد يعرض له آفة العجب، فمَنْ أُعجب بعمله حبط عمله، وكذلك مَنْ استكبر حبط عمله)(٢)، وقال ابن القيم: (اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله، مطالعاً فيه منّة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو الذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منَّ عليه بذلك هو الذي منّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته، ونظر قلبه؛ لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه، وغيبته عن شهود منَّة ربه وتوفيقه وإعانته. فإذا غاب عن تلك الملاحظة، وثبَّت النفس، وقامت في مقام الدعوى فوقع العجب؛ فسد عليه القول والعمل...)(٣).

ومطالعة المخلوقين والاهتمام بنظرهم، وحب حمدهم وكراهية ذمهم في الطاعات؛ من باب الإشراك بالخلق(٤)، وداعي النفس إليه قوي؛ إذ النفوس مجبولة على حب أن يكون لها منزلة في قلوب الخلق(٥)، ومَنْ غلب عليه ذلك

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٠/ ٢٧٧.
(٢) شرح الأربعين النووية، للنووي: ١٠، وانظر: الإخلاص، للأشقر: ٩٦ـ٩٧.
(٣) الفوائد، لابن القيم: ٢٢٢.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٠/ ٢٧٧.
(٥) انظر: مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٢١١، الإخلاص، للأشقر: ٩٦ـ٩٧.

(صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردد إليهم، والمراءاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يُعَظِّم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد؛ لأن من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه)(١)، وطريق العبد لتجاوز ذلك تذكُّر قوله ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف»(٢).

قال ابن القيم: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدَّثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؛ سهل عليك الإخلاص)(٣)، فمراءاة الآخرين والاهتمام بنظرهم لا تجلب للعبد نفعاً ولا تدفع عنه ضراً، بل إنها تجلب مقت الناس وسخطهم، كما قال ﷺ: «مَنْ سمَّع سمَّع الله به، ومَنْ يرائي يرائي الله به»(٤)، قال الخطابي في شرحه: (يقول: من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه؛ جُوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه، فيشيدوا عليه(٥) ما كان يبطنه ويسره من ذلك)(٦)، وقال ابن حجر: (وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله؛ فإن الله يجعله حديثاً

(١) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٢١١.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني.
(٣) الفوائد، لابن القيم: ٢١٨.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩٩).
(٥) أي: فيشهروا به، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٥٠٢ (شيد).
(٦) أعلام الحديث، للخطابي: ٣/ ٢٢٥٧.

عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة)[١]، ومما يبين أن مدح الناس وذمهم لا يغني العبد من الله شيئاً؛ أن الأقرع بن حابس لما نادىٰ من وراء حجرة النبي ﷺ قائلاً: إن مدحي زَيْن وذمي شَيْن. رد عليه ﷺ بقوله: «ذاك الله»[٢].

٧ ـ مصاحبة الأخيار:

من أعظم صوارف الإخلاص: مصاحبة غير المخلصين، وذلك لأن الصحبة مؤثرة في إصلاح الحال وإفساده، فـ(الطباع مجبولة علىٰ التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري)[٣]، فمَنْ جالس المخلصين تحرك الإخلاص لديه، ومن خالط أهل الرياء والسمعة تأثر بهم، ولشدة أثر الصحبة، قال ﷺ: «المرء علىٰ دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل»[٤]، فالخليل يحمل صاحبه علىٰ ما هو عليه، فإن كان صاحب صدق وإخلاص حمله علىٰ ذلك، وإن كان صاحب رياء وسمعة وهوىٰ حمله علىٰ ذلك، ولذا قال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[٥]، فرغب (فيه بمجالسة من ينتفع بمجالسته في الدنيا والآخرة، ونهىٰ عن مجالسة من يتأذىٰ بمجالسته فيهما)[٦].

٨ ـ التأسي بالمخلصين:

من أقرب طرق تحصيل الإخلاص: تأسي العبد بالمخلصين، وسيره علىٰ

---

(١) فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٣٤٤.
(٢) أخرجه أحمد (١٥٥٦١)، والترمذي (٣٢٦٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٠٧).
(٣) تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٩/ ٤٩.
(٤) أخرجه أحمد (٨٢١٢)، وقال محققو المسند، (إسناده جيد)، (١٤/ ١٤٢).
(٥) أخرجه البخاري (٥٥٣٤).
(٦) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ٣٨٠.

نهجهم؛ إذ المحاكاة الواعية هي الأسلوب الأمثل لإعادة تحقيق ما نجح الآخرون في فعله على نحو دقيق، فالقدوة الحسنة مثال حي يثير في النفس التقدير والمحبة، ويقنعها بإمكانية الوصول للكمال، ويحفزها للعمل على بلوغه[١]، ولذا جاء في القرآن الكريم الأمر بالتأسي بطليعة البشرية ـ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ والأخذ بطريقتهم؛ إذ قال ـ تعالى ـ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [**الأحزاب**: ٢١]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [**الأنعام**: ٩٠]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ [**الممتحنة**: ٤]، وجاء في السنة المطهرة الأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ وبخلفائه الراشدين من بعده؛ إذ قال ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»[٢].

وسبيل معرفة إخلاص المخلصين: مطالعة سيرهم والنظر في تراجمهم؛ إذ فيها هدي القوم وسمتهم، قال أبو حنيفة: «الحكايات عن العلماء ومجالستهم أحب إليَّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم»[٣]، ومَنْ قرأ في سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان؛ رأى من صور الإخلاص ما يبهر اللب ويشعل جذوة الإيمان.

٩ ـ اتخاذ الإخلاص هدفاً:

كثيرون هم أولئك الراغبون في الإخلاص، لكن المخلصون منهم قلة، ذلك أن رغبتهم تلك لم تتخذ هدفاً، فتترجم إلى ممارسة وعمل، فإذا أردت أن تكون مخلصاً فاجعل الإخلاص هدفك الذي تريده وتتجه إليه دوماً، ثم عليك أن تقرر استعدادك لدفع ثمن تحقيق ذلك الإخلاص، وتحويله إلى سلوك معاش وعادة

(١) انظر: القدوة، لابن حميد: ١٠ـ١١، القدوة على طريق الدعوة، لمصطفى مشهور: ٣١.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني.
(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ١/ ٥٠٩، رقم (٨١٩).

مقصودة في حياتك، وبادر إلى دفع ذلك الثمن فعلاً، كأن تقطع الطمع عما في أيدي الناس، وتترك التعلق بالدنيا واتخاذها غرضاً، وتكبح جماح نفسك وطمعها الشديد في الحصول على حمد الناس وثنائهم؛ لأن من فعل ذلك فسيكون بإذن الله من القلة التي فضلت التطبيق، وتحلت بالعمل مقابل تلك الكثرة التي اكتفت فقط بمجرد الإرادة والتكلم(١).

(١) انظر: قدرات غير محدودة، لروبينز: ٢٧.

مسائل في الإخلاص

١ ـ ما يضاد الإخلاص:

الأمور التي تنافي الإخلاص عديدة؛ أبرزها:

أولاً: الرياء والسمعة:

الرياء: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس ونيل حمدهم(١)، قال الغزالي: «الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم الخير»(٢)، والسمعة: العمل لأجل إسماع الناس طاعته، كأن يقرأ القرآن ليسمعه من حوله(٣)، ويرى العز بن عبد السلام أن المراد بالتسميع أن يحدّث المرء غيره بما يفعله من الطاعات التي لم يطلع عليها المتحدث؛ إذ جعل التسميع ضربين:

(**أحدهما**: تسميع الصادقين، وهو أن يعمل الطاعة خالصة لله، ثم يظهرها ويسمع الناس بها ليعظموه ويوقروه وينفعوه ولا يؤذوه.

الثاني: تسميع الكاذبين، وهو أن يقول: صليت ولم يصل، وزكيت ولم يزك، وصمت ولم يصم، وحججت ولم يحج، وغزوت ولم يغز)(٤)، وقد جاءت النصوص بالتحذير من الرياء والسمعة، ومن ذلك قوله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟! قال: قلنا: بلى. فقال: الشرك الخفي؛ أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»(٥)، وقوله

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٣٤٤.
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٢٩٧.
(٣) انظر: الإخلاص، للأشقر: ٩٥.
(٤) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام: ١٠٧.
(٥) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وهو حديث حسن.

ﷺ: «مَنْ سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه، وصغّره وحقّره»[١]، وقوله ﷺ: «مَنْ سمّع سمّع الله به، ومَنْ يرائي يرائي الله به»[٢]، وداعي العبد إلىٰ الرياء والسمعة حب المحمدة ونيل المنزلة في قلوب الخلق، وهو أمر مغروس حبه في أعماق النفس البشرية ومتجذر داخلها، «ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة»[٣]، قال ابن تيمية: (. . . الإنسان عليه أولاً أن يكون أمره لله، وقصده طاعة الله فيما أمره به. . . فإن فعل ذلك لطلب الرئاسة لنفسه وطائفته وتنقيص غيره، كان ذلك حمية لا يقبله الله، وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً)[٤]، وطرق الخلاص أن يعمق العبد إيمانه، ويلجأ إلىٰ ربه ويتضرع إليه، ويزهد في الدنيا ويعرف حقارتها، ويدرك عاقبة الرياء والسمعة في الدنيا والآخرة، وما لم يفعل ذلك فسيكون من العسير عليه مدافعتهما، واجتثاث باعثهما من القلب[٥].

ثانياً: العجب بالنفس:

العجب: كبر باطن بخصال النفس، يورث تكبراً ظاهراً في الأقوال والأعمال والأحوال[٦]، والشخص المعجب هو المزهو بنفسه المغتر بطاعته، ومتىٰ أصيب المرء بداء العجب فقد وقع في دواعي الهلكة، يدل لذلك قوله ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىٰ متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[٧]، وقوله ﷺ: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مُرَجِّلٌ جُمَّتَه إذ خسف الله به، فهو

(١) أخرجه أحمد (٦٨٠٠)، وصحح إسناده محققو المسند (١١/ ٥٧).
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩).
(٣) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٢٠٩.
(٤) منهاج السنة، لابن تيمية: ٥/ ٢٥٤.
(٥) انظر: الإخلاص، للأشقر: ٩٨.
(٦) انظر: نضرة النعيم، لابن ملوح وآخرين: ١١/ ٥٣٥٤ـ٥٣٥٦. .
(٧) رواه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (٣٠٣٩).

يتجلجل إلىٰ يوم القيامة»[١]، وإنما كان العجب مهلكاً؛ لأن صاحبه يستعظم عبادته (ويتبجح بها، ويمنّ علىٰ الله بفعلها، وينسىٰ نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها، ومَنْ لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله، ويخرجه العجب إلىٰ أن يثني علىٰ نفسه ويحمدها ويزكيها)[٢]، وقد أدرك السلف هذا الأمر، فقد «قيل لعائشة: متىٰ يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن»[٣]، وقال مطرف بن عبد الله: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً؛ أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً»[٤]، وقال مسروق: «كفىٰ بالمرء علماً أن يخشىٰ الله، وكفىٰ بالمرء جهلاً أن يُعجب بعلمه»[٥]، وقال الغزالي: (قد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ [**البقرة**: ٢٦٤]، والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب، فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً)[٦].

ومرد العجب بالنفس إلىٰ الجهل المحض بها وعدم معرفة حقيقتها، وعلاج ذلك: أن يعرف المعجب حقيقة نفسه، وكثرة عيوبه، وأن يقدر ربه حق قدره[٧]، ومن الدلائل علىٰ أن ذلك هو الدواء: ما روي «أن مالك بن دينار مَرَّ عليه المهلب ابن أبي صفرة وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: أما علمت أن هذه المشية

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٩).
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٧٠.
(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٧٠.
(٤) الحلية، لأبي نعيم: ٢/ ٢٠٠.
(٥) الدر المنثور، للسيوطي: ٥/ ٤٧٠.
(٦) إحياء علوم الدي، للغزالي: ٣ / ٣٧٠.
(٧) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣ / ٣٧١.

تكره إلا بين الصفين! فقال له المهلب: أما تعرفني؟! فقال له: أعرفك أحسن المعرفة. قال: وما تعرف مني؟ قال: أما أوّلك فنطفة مذرة، وأما آخرك فجيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة. فقال المهلب: الآن عرفتني حق المعرفة»(١)، وما روي أن طاوس نظر «إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته، وذلك قبل أن يُستخلف، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرء؟ فقال له كالمعتذر إليه: يا عم! لقد ضُرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها»(٢)، وما جاء عن ابن حزم قال: «كانت فيّ عيوب. . . ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله، ولم يبق - والحمد لله - أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع»(٣).

ثالثاً: اتباع الهوى:

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه(٤)، وهو باعث لصاحبه على العمل، فمتبع الهوى لا يهوى شيئاً إلا أتاه واتجه إليه، فإلهه هواه، قال - تعالى -: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤]، وقال - سبحانه -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال - عز وجل -: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فـ «الهوى شر داء خالط قلباً»(٥)، وصاحبه كما قال

---

(١) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٢ / ٣٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦ / ٣٤٦.
(٣) الأخلاق والسير، لابن حزم: ٣٣ - ٣٤.
(٤) ذم الهوى، لابن الجوزي: ١٢.
(٥) السنة، لعبد الله بن أحمد (١٠٥)، من كلام الحسن البصري.

قتادة: «كلما هوي شيئاً ركبه، وكلما اشتهىٰ شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوىٰ»[(١)]، وقال ابن تيمية: (وصاحب الهوىٰ يعميه الهوىٰ ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه، ولا يرضىٰ لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضىٰ إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، . . .)[(٢)]، وهذا بخلاف المخلص فإنه متوجه إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بكليته، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى** ﴾ [**النازعات**: ٤٠]؛ أي: كفها عن شهواتها الصادة عن طاعة الله تعالىٰ[(٣)]، فاتباع الهوىٰ مضاد للإخلاص مبطل للعمل، بل إن متبع الهوىٰ إذا عمل عملاً صالحاً اتباعاً لهواه لا عبودية لله فإن عمله غير مقبول؛ لأنه لم يقصد بعمله وجه الله ـ تعالىٰ ـ بل اتباع الهوىٰ، قال عمر بن عبد العزيز: «لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذاً أنت لا تثاب علىٰ ما وافقته من الحق، وتعاقب علىٰ ما تركته منه؛ لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين»[(٤)]، وقال الشاطبي: (اتباع الهوىٰ طريق إلىٰ المذموم وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه للشريعة فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفاً)[(٥)].

ومخالفة الهوىٰ شاقة علىٰ النفس، ولذا بلغ الهوىٰ بأهله مبالغ لا يبلغها غيرهم، وكفىٰ شاهداً علىٰ ذلك حال المحبين، وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن أصر علىٰ ما هو عليه، حتىٰ رضوا بإهلاك النفوس والأموال، ولم يرضوا بمخالفة الهوىٰ، حتىٰ قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ**

---

(١) الدر المنثور، للسيوطي: ٦ / ٢٦٠.
(٢) منهاج السنة، لابن تيمية: ٥ / ٢٥٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ٨٤٢، الإخلاص، للأشقر: ٧٣.
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١ / ٥٩٠.
(٥) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٨٩.

غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [**الجاثية**: ٢٣]، ولذا فقد قصد الشارع بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتىٰ يكون عبداً محضاً لله تعالىٰ(١)، قال الشاطبي: (المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتىٰ يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً) (٢).

فعلىٰ مريد الإخلاص أن يقوي إرادته، ويخاف مقام ربه، وينهىٰ النفس عن الهوىٰ حتىٰ تكون الجنة هي المأوىٰ(٣)، يقول الحسن البصري: «أفضل الجهاد جهاد الهوىٰ»(٤)، ويقول ابن الجوزي: (ينبغي أن يكون العمل كله لله ومعه ومن أجله، وقد كفاك كل مخلوق، وجلب لك كل خير، وإياك أن تميل عنه بموافقة هوىٰ وإرضاء مخلوق؛ فإنه يعكس عليك الحال، ويفوتك المقصود)(٥).

٢ ـ ثناء الناس على العمل:

يلازم المخلص العمل الصالح كارهاً الشهرة وظهور ما لا يشرع ظهوره من عمله، يقول علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا تبدأ لأن تشتهر، ولا ترفع شخصك لتُذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم؛ تسر الأبرار، وتغيظ الفجار»(٦)، ويقول إبراهيم بن أدهم: «ما صدق الله من أحب الشهرة»(٧)، وكان ابن محيريز يقول: «اللهم! إني أسألك ذكراً خاملاً»(٨).

لكن ذلك يعود علىٰ المخلص بعكس مراده، فيحبه الناس لتلك الملازمة

---

(١) انظر: الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٦٤.
(٢) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٨٩.
(٣) انظر: الإخلاص، للأشقر: ٧٣ـ٨٩.
(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٤١).
(٥) صيد الخاطر، لابن الجوزي: ٤٥١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦/ ٣٤٣.
(٧) المرجع السابق: ٦/ ٣٤٣.
(٨) المرجع السابق: ٦/ ٣٤٢.

ويحمدونه عليها فيُسَر بذلك، ويستبشر من دون تعرض منه لحمدهم وتقصّد لنيل ثنائهم، فهذه بشرىٰ لا تضر العبد ولا تخرجه عن الإخلاص[١]، يدل لذلك حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: «قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرىٰ المؤمن»[٢]، وفي لفظ: «يا رسول الله، أرأيت الرجل يعمل العمل لله، يحبه الناس عليه؟ قال ﷺ: تلك عاجل بشرىٰ المؤمن»[٣].

وللمقدسي تفصيل حسن؛ إذ قال: (فإن قيل: فما ترىٰ أحداً ينفك عن السرور إذا عُرفت طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟ فالجواب: أن السرور ينقسم إلىٰ محمود ومذموم، فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله ـ تعالىٰ ـ أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيُسَر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به . . . لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم حتىٰ يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه؛ فهذا مكروه مذموم)[٤].

٣ ـ ترك العمل مخافة الرياء:

ترك العمل خشية الرياء وسوسة من الشيطان، وحبالة من حبالاته، قال ابن حزم: (لإبليس في ذم الرياء حبالة، وذلك أنه رُبَّ ممتنع من فعل خيرٍ خوف أن يُظَنّ به الرياء)[٥]، فـ(لو فعل إنسان ذلك لأوشك إذا علم منه الشيطان بذلك أن يعترض له عند كل عمل بالخطرات بالرياء فيدع كل طاعة)[٦]، ولكن علىٰ العبد

(١) شعب الإيمان، للبيهقي: ٥/ ٣٧٥، شرح مسلم، للنووي: ١٦/ ٢٩٠.
(٢) رواه مسلم، (٢٦٤٢).
(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة (٤١٤٠).
(٤) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي: ٢٢٠.
(٥) الأخلاق والسير، لابن جزم: ١٦.
(٦) الإخلاص، للأشقر: ١٢٢.

أن يمضي في طاعته، فإن ذلك شديد الألم على شيطانه، قال ابن تيمية: (ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى، أو قيام ليل، أو غير ذلك، فإنه يصليه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه في الناس) ـ إلى أن قال ـ: (الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفاً من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها)(١)، وقد جاء التحذير من ذلك عن السلف، قال الفضيل: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما»(٢)، قال النووي: (ومعنى كلامه ـ رحمه الله ـ أن من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مراء؛ لأنه ترك العمل لأجل الناس، أما لو تركها ليصليها في الخلوة؛ فهذا مستحب إلا أن تكون فريضة أو زكاة واجبة أو يكون عالماً يقتدى به؛ فالجهر بالعبادة في ذلك أفضل)(٣)، وفصَّل المقدسي الأمر فقال: (فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه، وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله ـ تعالى ـ خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل؛ لأن الباعث الدين، وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مراء، فلا ينبغي ذلك؛ لأنه من مكائد الشيطان)(٤).

ومن وفق لابتداء عمله بنية صالحة فعليه أن يجاهد نفسه لتستمر على الإخلاص وتبتعد عن ضده؛ نظراً لتبدل النية وتقلبها في لحظات، قال سليمان ابن داود الهاشمي: «ربما أُحَدِّث بحديث واحد، ولي فيه نية، فإذا أتيت على بعضه تغيرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات»(٥)، لكن ليس للعبد

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٣/ ١٧٤.
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٨/ ٤٢٧.
(٣) شرح الأربعين النووية: ١١.
(٤) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: ٢٢٥، وانظر: الرائد، للفريح: ١/ ٤٨ـ٤٩.
(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٠/ ٦٢٥.

أن يترك مواصلة العمل خوف الرياء، قال النخعي: «إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مراءٍ. فزِدْها طولاً»[١].

٤ ـ الإقبال على العمل عند مخالطة الصالحين:

يشعر المرء حين يكون بين أظهر الأخيار العاملين بعلو همته، فيسابق لذلك في الخيرات، وينشط في الإقبال على الطاعات، فربما أطالوا قيام الليل فأطال معهم، وربما تصدقوا فتصدق معهم، ولولاهم ما علت همته ولا انبعث نشاطه، فيظن ظان أن ذلك رياء مناف للإخلاص، وليس الأمر كذلك، يدل لذلك حديث حنظلة رضي الله عنه، وفيه: «فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك، قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طُرُقكم، ولكن يا حنظلة! ساعة وساعة. ثلاث مرات»[٢]، قال المقدسي: (قد يبيت الرجل مع المجتهدين، فيصلون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط، فربما ظن ظان أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل: وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة، واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين، وقد يعسر عليه الصوم في منزله

(١) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: ٢٤٥.
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠).

لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً. فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر في قصده الباطن ولا يلتفت إلىٰ وسواس الشيطان)(١).

٥ ـ تشريك النية:

لتشريك النية صورتان:

الأولى: أن يقصد العبد بعمل واحد قربتين فأكثر، وجواز ذلك استثناء؛ إذ الأصل أن لكل قربة عبادة خاصة بها، فمثلاً: لو نوىٰ بالصلاة الرباعية الظهر والعصر لم يصح إجماعاً، ولكن جاء الشرع باستثناء بعض العبادات من ذلك، كأن ينوي بغسله: غسلي الجمعة والجنابة، وبصلاته: تحية المسجد والسنة الراتبة، وبصدقته علىٰ القريب: الصدقة والصلة، وبمكثه في المسجد: الاعتكاف وانتظار الصلاة، وبطوافه: طواف القدوم والعمرة، وبقراءته للقرآن: القربة وعدم النسيان، . . . ونحو ذلك من صور التشريك المشروعة(٢)، والتي لا تتنافىٰ مع الإخلاص، بل كلما أكثر العبد من استحضارها زاد أجره وتضاعفت مثوبته، يقول الغزالي: (فاجتهد أن تكثر من النية في جميع أعمالك حتىٰ تنوي لعمل واحد نيات كثيرة)(٣)، ويقول ابن القيم: (تداخل العبادات في العبادة الواحدة. . . باب عزيز شريف لا يعرفه إلا صادق الطلب، متضلع من العلم، عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)(٤)، ويقول السعدي: (إذا اجتمعت عبادتان من جنس واحد تداخلت أفعالهما، واكتفي عنهما بفعل واحد إذا كان المقصود واحداً، وهذا من

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: ٢٤٥.
(٢) انظر: مقاصد المكلفين، للأشقر: ٢٥٥، التداخل وأثره في الأحكام الشرعية، للدكتور محمد خالد: ٦١، التداخل بين الأحكام، للدكتور الخشلان: ١ / ١٦٨.
(٣) المدخل، لابن الحاج: ١ / ١٣.
(٤) الجواب الكافي، لابن القيم: ١٦٥.

نعمة الله وتيسيره؛ أن العمل الواحد يقوم مقام أعمال، فمن دخل المسجد وقت حضور الراتبة فصلى ركعتين ينوي بهما الراتبة وتحية المسجد حصل له فضلهما، وكذا لو اجتمعت معهما أو مع أحدهما سنة الوضوء أو صلاة الاستخارة أو غيرها من ذوات الأسباب)[١].

الثانية: أن يقصد العبد بعمل واحد قربة وعملاً مباحاً في آن واحد، كأن يخلط في الوضوء: نية الطهارة بنية التبرد أو التنظيف، وفي الصوم: نية التقرب بنية الحمية، وفي الحج: نية أداء النسك بنية التجارة، فهذا التشريك لا يقدح في الإخلاص؛ لأن (هذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هي تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك ولا للتعظيم، فلا تقدح في العبادات. . . نعم لا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب، أما الإثم والبطلان فلا سبيل إليه)[٢].

ومن أدلة جواز التشريك في النية، وأنه لا يفسد العمل ولا يقدح في الإخلاص: قوله ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[٣]؛ إذ أمر ﷺ (بالصوم لهذا الغرض، فلو كان ذلك قادحاً لم يأمر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العبادات)[٤]، وحديث أبي قلابة قال: «جاءنا مالك بن الحويرث، فصلى بنا في مسجدنا هذا، فقال: إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة، ولكن أريد أن أريكم كيف رأيت النبي ﷺ (يصلي)»[٥]، قال ابن حجر: (قوله: «إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة»

(١) القواعد والأصول الجامعة، للسعدي: ٩٦.
(٢) أنواع البروق في أنواع الفروق، للقرافي: ٣/ ٢٣.
(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، واللفظ له.
(٤) أنوار البروق في أنواع الفروق، للقرافي: ٣/ ٢٣.
(٥) أخرجه البخاري (٨٢٤).

استشكل نفي هذه الإرادة لما يلزم عليها من وجود صلاة غير قربة، ومثلها لا يصح، وأجيب: بأنه لم يرد نفي القربة، وإنما أراد بيان السبب الباعث له على الصلاة في غير وقت صلاة معينة جماعة، وكأنه قال: ليس الباعث لي على هذا الفعل حضور صلاة معينة من أداء أو إعادة أو غير ذلك، وإنما الباعث لي عليه قصد التعليم، وكأنه كان تعين عليه حينئذ؛ لأنه أحد من خوطب بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، كما سيأتي، ورأى أن التعليم بالفعل أوضح من القول، ففيه دليل على جواز مثل ذلك، وأنه ليس من باب التشريك في العبادة)[(١)].

٦ ـ حالات العمل مع الرياء:

للعمل مع الرياء حالات متنوعة، فهو إما أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، لا رياء فيها ولا سمعة، فهذا سبب للرفعة والثواب، وإما أن يكون رياء محضاً، لا يقصد به صاحبه إلا مراءاة المخلوقين ونيل منزلة عندهم، فهذا من أعمال المنافقين، ولا يكاد يقع من مؤمن بالله العظيم، قال ابن رجب عنه: (وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة)[(٢)].

وإما أن يشترك في باعثه إرادة الله تعالى، وطلب محمدة الناس، فهو على الصحيح باطل وصاحبه معاقب، لحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ـ عز وجل ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك»[(٣)]، قال ابن رجب: (وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه)[(٤)].

---

(١) فتح الباري، لابن حجر: ٢ / ١٩٢، وانظر: الإخلاص، للأشقر: ١٠٨ ـ ١١٧، التداخل بين الأحكام، للدكتور الخشلان: ١ / ١٧٣.
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١ / ٧٩.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وهو حديث صحيح.
(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١ / ٧٩.

وإما أن يكون أصل العمل لله تعالىٰ، لكن طرأت نية الرياء عليه؛ فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه ففي حبوط العمل خلاف بين علماء السلف[١]. والظاهر بطلانه لقوله ﷺ: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي تركته وشركه»[٢].

وإما أن يكون أصل العمل لغير الله لكن طرأ الإخلاص عليه، فهذا إن كانت العبادة متصلة لا يصح أولها إلا بصحة آخرها؛ فالعمل باطل للحديث السابق، وإن كان لا تعلق لأوله بآخره؛ فهما كالعملين الأول باطل والآخر صحيح[٣]، والله أعلم.

وأخيراً:

فالموفق من ضمّن أعماله كلها الإخلاص، وصار تحقيق مرضاة الله ومحبته، والطمع بثوابه وخشية عقابه؛ هو باعثه للعمل ومراده منه، نسأل الله ـ تعالىٰ ـ أن يلهمنا رشدنا، وأن يرزقنا إخلاص القول والعمل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١/ ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).
(٣) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٦١، الإخلاص، للأشقر: ١١٨.

فهرس الموضوعات